خطبة صلاة الجمعة 28/8/2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(جفَّ قلبي فأرشدوني)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

قال ابن كثير: يهدي إلى الرُّشد أي يهدي إلى السَّداد والنَّجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

قال المفسرون: معنى قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَّشَد والرُّشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ✕: «**مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا**».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة السادسة والعشرون في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منَّا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتُقدِّم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى، تعينه على رؤية الطريق وتُمكِّنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزةً تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة، لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(جفَّ قلبي فأرشدوني)**

المسألة:

أذاقني الله حلاوة الصلاة ولذة الذكر وجعلني قريباً منه بفضله ومنه، ولكني بعد ذلك أسرفت على نفسي بذنوب الخلوات ثم تبت ثم عدت مراراً إلى المعصية، على الرغم من أن الله كان يذكّرني به أثناء المعصية وقد حصلت الكثير من الأشياء التي تحول بيني وبينها إلا أني أصررت.

جف قلبي وأشعر أنه مات ولم أعد أكترث بمعصيتي، وكنت أحضر مجالس العلم والذكر ولكنها توقفت ففقدتها.

مداومتي على الطاعات باتت شكلية وقد أعود للمعصية في أي لحظة، أنا ضائع، فأرشدوني؟!.

الدليل الإرشادي:

أيها الإخوة:

القلب هو العالم بالله والساعي إليه والمكاشف بما عنده، القلب هو المطيع بالحقيقة لله تعالى وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره.

وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء ينضح بما فيه، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «...**أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» [البخاري].

وهذا القلب يقسو ويلين، ويأبى ويرضى، ويعقل ويجهل، ويبصر ويعمى، ويسلم ويسقم، ويحيا ويموت، ولا ينجو يوم القيامة إلا من أتى بقلب سليم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89].

وكما أن الجسد يسلم بإذن الله بأغذية نافعة وأدوية ناجعة وهي معلومة، فإن القلب يسلم بإذن الله بأغذية نافعة وأدوية ناجعة وهي سبعة:

الذكر، والسماع، والتدبر، والنافلة، والصحبة، والدعاء، والتخفف من الشهوات المباحات.

1- فأما ذكر الله تعالى:

فإنه للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء! وإن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وإن جلاءها ذكر الله.

فالزم أيها الأخ ذكر الله تعالى ليحيا قلبك وتنبعث الروح فيك، إذ لا حياة للروح والقلب إلا بذلك، وإلا فهما في جملة الأموات ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122].

فمن أكثر ذكر الله حيي قلبه بالله وقرت عينه به وسكنت نفسه إليه واستأنس بقربه وتنعم بحبه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**» [البخاري].

وقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17]

جاء في تفسير الرازي: (إنه تمثيل والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة، فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث).

2- وأما السماع:

فالمراد به أن يستمع المرء لتلاوة القرآن الكريم أو لمن يذكره بالله وآلائه وباليوم الآخر ووقفاته أو يستمع لنشيد يهيج في الفؤاد الحنين إلى لقاء الله وجنته، وعند ذلك يرق القلب ويمتلئ حباً وخوفاً، ويقبل على ربه بلباس الإيمان والتقوى.

للقلب ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وله غذاء يصل إليه منها، وتأثير السمع في القلب سريع وشديد، فربما غشي على الإنسان إذا سمع كلاماً يسره أو يسوؤه، أو صوتًا لذيذًا طيباً مناسباً.

فإذا كان المسموع معنى شريفاً بصوت جميل، حصل للقلب حظه ونصيبه من الغذاء والدواء كسماعه آيات القرآن المرتلة، وحسبكم أن تتذكروا أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم لما سمع بضع آيات من سورة طه أحيت قلبه بعد موت وأيقظت روحه بعد سبات

أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال: قال لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**»، قال فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قال: «**إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا). رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيل.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إلى القرآن الكريم فيسيل دمعه الشريف.

3- وأما التدبر:

فالمراد به تدبر القرآن الكريم، فتسري في من يتدبر القرآن روح جديدة لا يعرفها من هجر القرآن، فقد سمى الله تعالى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح والعقول فقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] فأخبر أنه روح تحصل به الحياة وأنه نور تحصل به الإضاءة.

ومن أجل هذا تجد لأهل القلوب السليمة أوراداً في القرآن الكريم في الليل أو النهار، قال التابعي أبو الزناد عبد الله بن ذكوان: (كنت أخرج من السّحَر إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أمر ببيت إلا وفيه قارئ).

أيها الأخ الكريم: القرآن ضد أوجاع الحياة كلها، فإن أتعبك قلبك وآلمك فؤادك فافزع عليه واجرع من معينه، فإنه يبرئ مريض الروح، ويداوي مجروح القلب، ويبعث فيه الحياة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82].

4- وأما النوافل:

فالمراد بها الإكثار من الأعمال الصالحة التي تقرب لله تعالى، فإن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب العباد. وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في البدن، ونقصاً في الرزق وبغضاً في قلوب العباد.

والطاعات غذاء القلوب ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] وقد فسرت الحياة الطيبة بحياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره؛ فإنه لا حياة أطيبُ من حياة صاحبها ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة.

5- وأما الصحبة:

فالمراد بها صحبة الصالحين ومجالستهم ومحبتهم، الذين يذكّرون بالله بكلامهم وبالنظر إلى وجوههم: فمن الناس من إذا نظرت إلى وجهه؛ انشرح صدرك؛ ورق قلبك، وذهبت عنك كثير من الأوهام والهموم والمخاوف.

قال جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى محمد بن واسع، فيلين قلبي.

الروحُ كالريحِ إنْ مرّتْ على عطرٍ طابتْ، وتخبثُ إنْ مرّتْ على الجيفِ

6- وأما التخفف من الشهوات المباحات:

فلأن الفضول من الأكل والشرب، والنوم والضحك، والمخالطة والمجالسة؛ كل ذلك يؤثر على قلب صاحبه فيرهقه ويقسيه ويفسده، يقول الفضيل بن عياض: خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام وكثرة الأكل.

7- وأما الدعاء:

فلأن شفاء القلب وحياته بيد مولاه وسيده، فأكثِر من مناجاته والضراعة إليه والدعاء بين يديه أن يرزقك قلباً سليماً حياً بذكره مشغولاً بمحابه.

ادع بدعاء القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

وادع لقلبك بدعاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ بَرِّدْ قَلْبِي بِالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَالمَاءِ البَارِدِ، اللَّهُمَّ نَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ**» [البخاري ومسلم].

«**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» [الترمذي وابن ماجه].

«**اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ**» [أحمد].

ختاماً – أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأمثاله، اعلم أن الله جل جلاله بيده شفاء قلبك وحياته فإنه سبحانه يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وخذ من أغذية القلب وأدويته ما فيه بإذن الله حياته وسلامته: الذكر والسماع والتدبر والنافلة والصحبة والدعاء والتخفف من الشهوات المباحات. والله أعلم.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

والحمد لله رب العالمين